

الفصل الأول

فى رحاب الإمام

○ النسب الشريف

○ المولد الكريم والنشأة المنيفة

النسب الشريف

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. فهو عربى قرشى هاشمى مطلبى يلتقى مع الرسول ﷺ فى جده عبد مناف، ولذلك يقال عن الشافعى: إنه «ابن عم الرسول ﷺ». ويقول ياقوت: «وهاشم هذا الذى فى نسب الشافعى ليس هو هاشما جد النبى ﷺ.. ذاك هاشم بن عبد مناف، فهاشم هذا هو ابن أخى ذاك».

وكان الشافعى بهذه الصلة بالنبى يعتبر نفسه من ذوى القربى بالرسول ﷺ، بل من سلالة «ذوى القربى» الذين ناصرُوا الرسول فى الجاهلية والإسلام، وانضموا إلى نصره الرسول حين قاطعته قريش واحتملوا الأذى معه ﷺ.

وليس صحيحاً إذا ما يزعمه بعض المتعصبين ضد الشافعى من أنه ليس قرشياً بالنسب بل بالولاء فقط.

المولد الكريم والنشأة المنيفة

وُلد الشافعى بغزة من أرض فلسطين سنة خمسين ومائة، وهذا هو المشهور عند الكثيرين.. وهناك رواية تقول إنه وُلد بعسقلان، وهى بلدة تبعد نحو ثلاثة فراسخ من غزة، وعلى مرحلتين من بيت المقدس أو ثلاث، وهناك رواية أبعد من سابقتها وهى أنه وُلد باليمن،

وروى ياقوت عن الشافعي أنه قال: «وُلدت باليمن، فخافت أمي عليّ الضيعة فحملتني إلى مكة وأنا ابن عشر أو شبيهه بذلك».

وقد قيل للتوفيق بين هذه الأقوال الثلاثة أنه وُلد بغزة ونشأ بعسقلان، وعسقلان كلها من قبائل اليمن، وهذا معنى قول من قال أنه وُلد باليمن، أي بين قبائل كلها يمنية.

ويروى أن الشافعي وُلد في الليلة التي مات فيها أبو حنيفة ولئن صح هذا، والتأكد منه بعيد، إنها لمصادفة عجيبة أن يموت إمام فيولد عند موته إمام.. قال ابن حجر: وفيه إشارة إلى أنه يخلفه في فنّه، يقول الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الحفناوي: (هذا اللفظ يقبل التأويل؛ فإنهم يطلقون اليوم، ويريدون مُطلق الزمان) وقال الشيخ أبو زهرة- رحمه الله-: «وقد ذهب الخيال ببعض الكُتّاب إلى أن يقول: إنه وُلد في الليلة التي توفي فيها أبو حنيفة، ليقال: قد وُلد إمام، وتوفى إمام، لكيلا يخلو وجه الأرض من إمام في باب من أبواب الفقه، وما لهذا الادعاء فضل جدوى»^(١).

مات أبوه وعمره سنتان فانتقلت به أمه إلى مكة لتحافظ على شرف نسبه فنشأ يتيماً.

وأمه امرأة من الأزد وليس بصحيح ما قيل إنها من قريش، واسمها فاطمة بنت عبد الله الأزديّة، وروى النووي عند حديثه عن أم الشافعي أن الرسول ﷺ قال: «الأزد أسد الله في الأرض، يريد الناس أن يضعوهم، ويأبى الله إلا أن يرفعهم، وليأتين على الناس زمان يقول الرجل: يا ليتني كنت أزدياً، وياليت أمي كانت أزديّة».

(١) الأم للإمام محمد بن إدريس الشافعي تحقيق وتعليق الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم

الحفناوي- دار الحديث- ج ١ ص ١٣.

كما روى حديثاً موقوفاً جاء فيه: «الملك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة، والأمانة في الأزد». وتوفيت أمه في مكة على أصح الأقوال.

وقد شب الشافعي فقيراً رقيق الحال ضيق العيش حتى احتاج وهو يطلب العلم إلى جمع قطع الخزف «الفخار» وقطع الجلود وسعف النخيل وعظام الجمال ليكتب عليها، وكان يذهب إلى الدواوين ويستوهب أهلها أوراقاً ليكتب عليها.

يقول الشيخ أبو زهرة: «والنشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ ينشأ على خلق قويم ومسلك كريم إن انتفتت الموانع، ولم يكن ثمة شذوذ؛ ذلك أن علو النسب وشرفه يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره يتجه إلى معالي الأمور ويتجافى عن سفاسفها، ويرتفع عن الدنيا، فلا الفقر يصيبه بذل، ولا يتطامن عن ضعة ولا يرضى بالدنية، ويسعى إلى المجد بهمة وجلْد ليرفع خسياسة الفقر وذل الحاجة، ثم إن نشأته فقيراً تجعله يحس بإحساس الناس ويندمج في أوساطهم ويتعرف خبيثة نفوسهم ودخائل مجتمعهم ويستشعر مشاعرهم، وذلك أمر ضروري لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالمجتمع»^(١).

وقد حفظ- رحمه الله- القرآن وهو ابن سبع سنين.

يقول رضى الله عنه: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر».

وذكر ياقوت الحموى أنه استعار «الموطأ» من رجل بمكة وحفظه في تسع ليالٍ!!

(١) السابق نفسه ١/ ١٦.

وقال الشافعي: «كنت يتيما في حجر أمي ولم يكن لها مال تعطيه للمعلم الذي يعلمني القرآن، وكان المعلم قد رضى من أمي أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، وكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة، وكان منزلنا بمكة في «شعب الخيف» فكنت أنظر إلى العظم فأكتب فيه الحديث أو المسألة، وكانت لنا جرة عظيمة إذا امتلأ العظم طرحته في الجرة».

وقيل: كان- رحمه الله- في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب، ثم أخذ في الفقه.

قال مصعب بن عبد الله الزبيري: أنه كان يسير على دابة له، وخلفه كاتب لأبي فتمثل الشافعي ببيت من الشعر فقرعه كاتب أبي بالسوط ثم قال له: مثلك يذهب بمروءته في مثل هذا، أين أنت من الفقه؟

قال الشافعي: فنفعني الله بكلامه، ورجعت فكتبت عن سفيان بن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد الزنجي. وقال الشافعي: كنت أنظر في الشعر، فارتقيت عقبه بمنى فإذا صوت خلفي: عليك بالفقه.

* * *